الف ليلة وليلة
تاريخ حياتها (١)

« المحاضرة الاولى »

يخطو الدهر دائباً في وناء وكبرياء وصمت ، فيعفو الاثر . ويفري الحجر . ويبري الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، الا شيئاً واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويكمن كمون السر في دخيلته وإضماره ، أُريد به ذكريات الصبى ، واحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخونه البِلى ، ثابتة والعيش تزعزعه الاحداث ، ناضرة والمنى يصوّحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهمّ ظلام وسحب ، فمن منكم ياسادة لا يذكر اول بيت أبصر فيه الوجود ، واول ملعب عرف فيه الرفيق ، واول مكتب رأى فيه المعلم ، واول موعد لاقى فيه الحبيب ؟؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، في غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدّة الحنون . او الأم الرؤم . او الظئر الحانية ، فينصتون في سكون وشوق الى ماتقصه عليهم من روائع الأسمار . وبدائع الأقاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدّث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب ان يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى ، وتسمع بقية الحديث الشهي في الحلم !

هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا الصغيرة سحرا ، ولعواطفنا المشبوبة سكرا ،

(١) محاضرة للعلامة السيد احمد حسن الزيات عضو المجمع العلمي العربي أُلقيت باسمه في ردهة المحاضرات في ٢٦ شباط سنة ١٩٣٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الازمُن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لانها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص فلا تعرف لها أولية . ولا تحدَّد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم استقر بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة .

وأما أبطالها الذين وُجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس اولاً بما فعلوا ثم سرَّجوا حول أسمائهم وأنبائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم : كدعد وليلى في الشعر وابي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الابطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الاعلى ، او القدر العابث او الجد العاثر ، او السلطان الجائر ، او الهوى المتسلط ، او الامل الآسي ، او الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الامومة أراكم ولاريب تركتموني أتكلم وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة تتخيلون سحرها ، وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب او البعيد ، مردداً أسماء اولئك الابطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم ، وتألمتم لمصابهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب ، وبأساء الحرب ، ولأواء الخطب : من أمثال حسن البصري ، ونورالدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، الى آخر ما سجلته الذاكرة ...

انا كذلك يا سادتي ذكرت حين كتبت هذه السطور — هاتيك القبور التي ضمت هواي . ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه ... ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأُنس في القاهرة كان جمعة القلوب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وألفة النفوس ، ومستجم الخواطر ، فعصفت به روح المدنية الحديثة ، ذلك منظر المحدث اوالقصاص اوالمسامر اوالشاعر في مقهى الحي وهو في حلته الشرقية المفوّفة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية ، وقدتجمع بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، أوزاع العامة ، وشيوخ المحلة يستجمّون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية ، وتدخين النرجيلة العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الإصغاء المشترك الى (ابي درويش) وهو يقص بصوته العريض المتئد ، وجرسه الهاديء المتزن — حروب (عنترة) او وقائع (ابي زيد) اومخاطر (ابن ذي يزن) فينقلهم بقوة تمثيله اوبحسن ترتيله ، على جناح الخيال — الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الحديث أن فورة الحماسة اوالشوق قدطغت في النفوس لوقوع البطل في أسر اوشدة ، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار . فلا يجدُ هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى إطلاق البطل من إساره ، وإنقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره ...

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب ، والصمت الحالم ، والمنظر الكئيب — قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين ، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان باكواب من ذوب السكر المعطّر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قدخرج الى القوم يتهادى في عمته المكوّرة وجبته المعصفرة وقفطانه الانيق الاصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المنتفخ الضخم . فاذا استوى على عرشه المنجّد — توهج البخور من جانب وتضوعت العطور من جانب ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العيون وأنشأ يحدث . فاذا بدا لاحد ان يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب اولاً من انه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف عبلة الى عنترة ... فاذا كانت القصة قصة بني هلال — وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال الى عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفة تتعصب لبني هلال . وطائفة تتعصب لبني زناتة . وهؤلاء يريدون الشاعر على ان يقص واقعة . واولئك يسألونه ان يقص اخرى ، والشاعر لا يجيب الا من يجزل له العطاء . فاذا رجحت كفة وشالت كفة أخذ يروي من ذاكرته وغيبه — على هوى الفئة الغالبة مالم يسجله تاريخ . ولم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدونه كتاب : فيزور الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقتبس مما خزنه في حافظته — من مختلف الاسمار ورقائق الاشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فإما نفحة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث اربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ — هو الاثر التاريخي والنموذج الحقيقي ، لذلك القصاص البارع الذي خلّف لنا كتابنا العالمي الخالد (الف ليلة وليلة) .

يرجع تاريخ هذا القصاص ياسادة الى صدر الإسلام ، والفضل في وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم . فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الاولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها — من أسلم من أهل الكتاب كتميم الداري ووهب بن منبه . وكعب الاحبار وعبدالله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانباء ، ابتغاء للعبرة ، والتماساً للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم امير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة أثره في توجيه الميول — فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتعال الاحاديث . واختلاق الاقاصيص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلاً على القصص كان اذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم يدعو للخليفة وحزبه ، ويدعو على أهل خصومته وحربه . وكان هو اذا انفتل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه ، وكان ولاته وقواده يقدمون القُصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) أن عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقص عليهم . ثم قال : اين القصاص ؟ فلم يجبه احد . فقال : اين من يروي شعر عنترة؟ فلم يجبه احد .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً الى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد، ويموّهان على العقول صور الباطل ، والقصاص كانوا في ذلك أشدّ وطأة على الحق : لانهم ينسبون ما يفترون الى التاريخ اوالى الدين . فلما هدأت ثائرة الاحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول — عاد القصاص الى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن الى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه بروايته وندمائه ، فانقلب الى العامة يسامرهم في أملائهم وأعراسهم بما أثر من ايام العرب ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .

وانتشر القُصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرةً من ظواهر اجتماعها ، وحاجةً من حاجات عامتها ورعاعها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده : من عنف المتسلطين من السلاجقة ، وعسف المتغلبين من المغول ، وغزو المتعصبين من الفرنك ، فطلبهم العامة تفريجاً للكرب ، والخاصة تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة ، وأنفق بضاعة ، وأرفع مكانة ، لان طبيعة إقليمها ، ونظام اجتماعها ، وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملموم الرقعة ، متصل العمارة ، يجود بالخير الكثير ، على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلي الاسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق طلق — اذا عم الفيضان ، وعدل السلطان ، واقتصد الموت وعسر متجهم كزّ — اذا فحش الغلاء ، وألحّ الوباء ، وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر اوالمسامر عنصرين من عناصر الحياة ينفّران بهجة العيش في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة .

وكان اول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتر التجيبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاء ثم أُفرد به ، ثم تعاقبت القصّاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداءً للعقيدة ، وأبواقاً للسياسة ، تسمع منهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحجة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان (يعقوب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن كلّس) وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لاهل البيت . وكان مقتل الامام (علي) ومأساة الامام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهري رمضان والمحرم .

وقيل ان ربيةً حدثت في قصر (العزيز بالله) فتناقلتها الافواه ورددتها الاندية فطلب الى شيخ القصاص يومئذ [يوسف بن اسماعيل[1]] ان يلهي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم وهي اليانعة العرب لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل فني آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد والقاهرة . ففي عهدي (المقتدر بالله العباسي) و (العزيز بالله الفاطمي) كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون في جمع الاسمار ، من الوراقين والرحالين والعامة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في مجالس الخلفاء ، وسوامر الملوك ، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع بها الى السليقة الغربية المجبولة على الايجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضعه (الجهشياري) و (ابن دلان) و (ابن العطار) في القرن الرابع من الاقاصيص في الحب الطروب ، والترف المسرف ، وماوضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود) و (أبان بن عبد الحميد) من الاسمار في الامثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة ، وماصنعه من قبل هؤلاء (عيسى بن دأب) و (هشام الكلبي) و (الهيثم بن عدي) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية — كل اولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري . وممن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسين برسيفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما القصص في مصر فكان غالباً من عمل القصاصين والمسامرين ، يلفقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الافواه ، ويحدثون به الدهماء في المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ماعندهم من القصص . فاذا ما انقطع احدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة .

ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلاً لا عهد للادب العربي به . ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان (Roman) في اصطلاح الفرنك ، فان المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل (Fable) والأقصوصة (Conte) والحكاية (nouvelle) وهذه الانواع قد تولد بعضها من بعض على نحو مايرى الاستاذ (برونتير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية ، فالأقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الأقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية ، باتساع الخيال ، وفعل المبالغة ، وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوءها الى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الامور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بادبهم فيضطرون في حضرة الملوك ان يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، اما القصاص المصري فقد تهيأت له الاسباب اللازمة لخلق القصة : كان سمير الاوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخُلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق ، قصداً الى الإغراب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً الى الحوادث العرَضية ، ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لانه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لا يعلمها ، فاستطاع بذلك ان يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الاحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصري يعتمد في مادته على مايصدر عن بغداد من الاقاصيص الموضوعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمنقولة ، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ما تنوقل في مصر وما تجمع من الاخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ما راوا من الاعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان وبزُرك بن شهريار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ما حكاه ابن خرداذبة من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه ، سود الجلود ، لا تزيد قامة أطولهم على اربعة أشبار ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وإن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور او الاسد ، وما جاء في كتاب (المستطرف) من ان في (البلغار) من طوله اكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى ، لا يصلها بحياة البطل الا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة (عنترة) : بناها على حادثة أصلية صحيحة : هي (حرب داحس والغبراء) التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو (عنترة بن شداد) العبسي ، فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والإجارة والشعر والغزو والسلب والثأر ، ولكن حروب عبس وذبيان مهما هوّل فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلا ، ولا تدرُّ عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسلمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في اثناء ذلك ينقلنا في السهول والاودية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم من طريق التاريخ المقتضب المفكك الا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك ان الشوق شديد ، وان الامد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدمه الى مصر بلد القصاص فيقود عنترة بها جيوشاً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً لا تزال العامة تعرفها الى اليوم باسمه ، ثم يذهب الى القسطنطينية ويزوجه من امرأة رومية . حتى اذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظفرت المنون اخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من (بيزنطة) الى الحجاز فطالب بعرش ابيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التي اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجبا ، ومنها طروبا ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) احد خصوم (عنترة) المقهورين الموتورين رماه غيلةً بسهم مريش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده ، متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة . فارتد الجيش وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنترة حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه ، وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر الحيلة لكشف الامر فأرسلوا الى جواده حجراً نهيجه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبةً خرّ لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ان القصاص الماهر قد اخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته . فلما خرّ تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة ، باهر الجلالة ، صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل : فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحي الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجامحة ، فأطفأت منائر بغداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب : من علم وادب ، وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تثلج الهلال الآفل ، وتنهش المجد الطريد — رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيباً . ورأينا القصاص قد اتسع خياله ، بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة — ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غفلاً من أسماء مؤلفيها : لان القصاص المحترفين إنما كتبوها لانفسهم فيما أرجح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنُشرت على شكلها ، دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هـذا الدور سيف بن ذي يزن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاه ، فأما أنها كتبت في هذي العهود فذلك واضح لادنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها ، واسماء اشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر ، حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ...

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي اجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط : لان الملك (سيفاً) وهو قادم به من السودان وقف بقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عب عبابه وطفحت أواذيه فاندفق شطر منه الى الشمال . واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين .

ومدينة (سمنود) أصلها سماء نود لان الحكيم (نودا) صاحبها قد عقد عليها سماءً بالسحر توقعاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل الى مصبه . ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال ان قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي ألهبتها في قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على ان يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً يقتحم المعاقل والأرصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها ، وهو يقول : « لااله الا الله إبراهيم خليل الله » . وكذلك سائر الابطال في سائر القصص ، الا انهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده ، وحكم الاتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من ار كان الاجتماع ، وحللا أواصر الاخلاق والطباع ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومُني الناس بإلحاح الأوباء ، وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا الى التصوف او الى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويعبثون بالامن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على (علي الزيبق) و (احمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليلة المحتالة) او (دالة المحتالة) كما يسميها (المسعودي) . وأصبح أسلوب القصاص في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة . فهو يستعمل في قصصه لغةً مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها في كل قصة . ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس في جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر . فتكدسوا في السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الاساطير والاسمار . فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوع محاضرتنا (الف ليلة وليلة) .

(الف ليلة وليلة) ياسادة كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفُّع العلية أذىً طويلا ، أغفله الادب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الادباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه (محمد بن اسحق المعروف بابن النديم) فقال إنه غثّ بارد ، لانه نظر اليه نظره الى الادب الارستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلُّب الديمقراطية وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الإبداعي (الرومانتكيين) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء وهبّ رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور[1]) الشرق اخذ أدباؤنا بحكم

(١) فولكلور (Folklore) كلمة انكليزية يراد بها في الادب الاوربي — مجموع التقاليد والاساطير والاشعار الشعبية لأمة من الامم .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التقليد والعدوى — يعطفون على أدب السواد ، فدونوا اللغة العاميـة ، وجمعوا الأغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش — الى قول الاوربيين : ان في أدبنا الموروث كنزاً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة . واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي ان يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وينبه الناس الى فضله ، ويهنأ العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا انه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر الى كل لغة . وحل الموقع الاول من كل أدب ، وظفر بإعجاب النوابغ من كل أمة . حتى قال (فولتير) انه لم يزاول فن القصص الا بعد ان قرأ الف ليلة وليلة اربع عشرة مرة ، وتمنى القصصيُّ الفرنسي (استندال) ان يمحو الله من ذاكرته (الف ليلة وليلة) حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين اخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في اصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها . وان الاستاذ (فكتور شوفان) أفرد له في كتابه (تاريخ المؤلفات العربيـة) جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين خص فيهما طائفـة كبيرة من حكاياته ، وان الكتّاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للاول رواية (لص بغداد) وللثاني (قسمت) او (القضاء والقدر) ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا — قد اقتبسوا منه أدباً للاطفال فاختصروه وصوروه ، ولقيتُ انا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر اميركياً قـد أرسلتْ الاول جامعته . والثاني جمعيته ، لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات (الف ليلة وليلة) .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمعه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعـه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الادب . ولكنهم الى اليوم لم يدرسوه دراسةً علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع مافيه ، قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب . والأدب الذي احتقر العامة . فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاديب الباحث والكاتب القصصي — منهل ثر الينابيع ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان للشعب العربي في زمن انحلاله ، وضياع استقلاله ، وصعوبة اتصاله — قبس يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسيً على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون (الف ليلة وليلة) علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدلّ عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانها البارز في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . اما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخبُ ، وصداها داوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في (بغداد) متحف زاخر بالاعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لانه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ (بغداد) في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر ، والترف العجيب — واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر احد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ذلك بعض فضل الكتاب على (بغداد) . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه احد من بنيها ، وانما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة ، وطبع اول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب (الف ليلة وليلة) ان صوّرها للناس مثابةً للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل بينما يصور (بغداد) مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ومظهراً للترف ، حتى كان من جرّاء ذلك ان اهل (بغداد) لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان اذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من (بغداد) تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب ان القصاص المصري اذا تحدث عن مصر — وهو منها وفيها — تحدث عما يرى ، وعبر عما يسمع ، وقد عشنا في اي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . اما اذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثر بعوامل اربعة : يتأثر بما وُضع من الاقاصيص الجميلة في بغداد — ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة — ويتأثر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي ، وتعظيم البعيد — ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الامم ، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة ان يعترف بموت (الرشيد) ، ومصرع (بغداد) ونكبة المجد الأثيل .

اما بعد فاني أحاول الآن ياسادتي ان أكشف عن حقيقة (الف ليلة وليلة) بمقدار ماتهيأت لي المراجع في (بغداد) ، بعد ان توفرتُ على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات ، ووقفتُ على ماتشرعنه من الابحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع ان أدفع السأم في نفوسكم بذكر مالايحتمله المقام من التحليل المفصل ، وانما أجتزيء بذكر مالا يسع الرجل المثقف جهله من امر هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهر زاد الصباح ، فنرجيء البقية الى الاسبوع المقبل اذا تفضلتم بالسماح .

احمد حسن الزيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net